أدبنا العربي من التأثّر بالاستشراق إلى الدّعوة إلى التّماهي في العولمة

أ.فضة ميسوم
جامعة الجلفة

مقدمة:

تتشابه المشاعر الإنسانية حينا ، وتختلف أحيانا ، ويشحن صدر المرء بفيض من الأحاسيس، فيعبّر عنها بأساليب مختلفة ، ولعلّ الأدب بأنواعه أهمها .

وقد كان الأدب على مرّ العصور واختلاف الأمم سجّلا لحياة أهله . فلا غرو أن يكون الأدب العربي ديوانهم الذي صوّر جوانب الحياة المختلفة والتي من خلالها تعرّف النّاس عليهم في العصور المتوالية . ولا ريب أنّ الأدب هو نتاج البيئة التي أنتج فيها ، فاصطبغ بصبغتها وتميّز عن غيره بخصائص تميّز العصر عن غيره من العصور .

وإذا كان أدب كلّ قوم متميّزا في كل عصر عن العصر السّابق واللاحق ، فلا شكّ أنّ أدب كل شعب متميّز عن أدب الشّعوب الأخرى تميّز الإنسان بفكره وعاداته وتقاليده وثقافته في الحياة. غير أنّ هذا لم يمنع من امتزاج الآداب بعضها ببعض دون أن تزول هذه الخصوصيات . ولنا في الأدب العباسي المثل ، فقد استطاع أن يختلط بالأدب الفارسي والهندي وغيرهما مع بقاء خصائصه الدّقيقة المميّزة له . وقد كان هذا برغبة من العرب في التّجديد والإبداع لتطوّر الحياة ومظاهرها . ثمّ أتى بعد ذلك عصر انحطّ فيه الأدب وصار بعضه اجترارا لسابقه فلم يعد الأديب ابن بيئته إنّما صار يعبّر عن حياة أخرى ، ويعيش في غير زمانه .

وفي بداية النّهضة العربية الحديثة التي يؤرّخ لها بالتقاء الغرب بالشّرق ، ظهر المستشرقون بحركتهم الاستشراقية منطلقين في أغلب الأحيان من مدارس اللّاهوت بألمانيا والنّمسا وهولندا وفرنسا... وقد أبدوا اهتماما كبيرا بتراثنا مدفوعين إلى ذلك بنوايا مختلفة ؛ فكان منهم المغرضون على كثرتهم ، كما كان منهم المنصفون على قلّتهم . فبالقدر الّذي نفضوا الغبار عن كثير من تراثنا المخطوط ، فإنّهم نهبوا الكثير منه ، وشوّهوا جزءا أخر منه . وكانوا يعتمدون في دراسته على مناهجهم القائمة على التّشكيك والافتراض وأحيانا الافتراء . فكارل بروكلمان[1] مثلا الذي أرّخ لأدبنا

---

[1] كارل بروكلمان مستشرق ألماني ولد في 17 سبتمبر 1868 في مدينة روستوك، بدأ دراسة اللغة العربية وهو في المرحلة الثانوية، ، بدأ يدرس السريانية، والآرامية الكتابية، وأتقن العبرية. درس في الجامعة بالإضافة إلى

العربي وكتب في السّيرة وتاريخ العرب كان يثير الكثير من الشّكوك والشّبهات . وقد حاول شوقي أبو خليل الردّ على هذه الشّبهات والافتراءات في كتابه عنه[2]. وصنّف مفكرنا الكبير مالك بن نبي المستشرقين إلى طبقات من حيث ظهورهم أو من حيث أعمالهم .

فمن حيث الظّهور أُختلف في تاريخ حركة الاستشراق غير أنّ الأخطر منه ما كان بعد النّهضة وهو ما يسميه د. إدوارد سعيد الاستشراق الحديث[3] لأنّ أثره كان كبيرا في الحياة الفكرية والأدبية للعرب ، وما ترتّب عنه بعد ذلك في حياتهم بصورة عامّة . فقد كان له جانب إيجابي تمثّل في إحياء كثير من تراثنا اللّغوي والأدبي ، وجانب سلبي في شدّ العرب إلى الماضي وتثبيطهم عن التّفكير في المستقبل إلا إذا كان ممّا يتناسب مع فكرهم ومناهجهم .. يقول مالك بن نبي :" .. وأمّا التّيار الثّاني فإنّه وجد منحدره الطبيعي في أدب الفخر والتّمجيد الذي نشأ منذ القرن التّاسع عشر على إثر ما نشره علماء مستشرقون أمثال دوزي[4]عن الحضارة الإسلامية"[5].

ولا يخفى ولعنا بالمديح الذي ورثناه عن آبائنا الذين كانوا يغدقون العطاء على مادحيهم ولازلنا نفعل ذلك حتّى يومنا هذا .

أمّا من حيث الأعمال فإنّ منهم المادحون للتّراث الشّرقي ومنهم الذامّون له . وإذا كان أثر الذّامين له ظاهرا ، فإنّ خطر المادحين غير ظاهر . وذلك لأنّ أصحابه يسعون إلى شدّ العرب دائما إلى الماضي إلا إذا كان التّفكير في المستقبل ممّا يوافق هوى الغرب كرؤية طه حسين في كتابه

اللغات الشرقية اللغات الكلاسيكية (اليونانية واللاتينية) ودرس على يدي المستشرق ثيودور نولدكه[5] كلفه نولدكه بالقيام بدراسة عن العلاقة بين كتاب الكامل في التاريخ لابن كثير، وكتاب أخبار الرسل والملوك للطبري، وقد استطاع الحصول على الدكتوراه الأولى عام 1890. انتخب بروكلمان في مجاميع: برلين وليبزيج وبودابست وبون ودمشق، وغيرها.

(2) ينظر شوقي أبو خليل : كارل بروكلمان في الميزان . ط1 . دار الفكر المعاصر بلبنان ودار الفكر بدمشق 1987م .

(3) ينظر د.إدوارد سعيد : الاستشراق المفاهيم الغربية للاستشراق . ط1 . رؤية للنشر والتوزيع ، القاهرة ، ص 317 .

(4) رَينْهَارْت دُوزِي Reinhart Dozy مستشرق هولندي وأستاذ العربية في كلية الآداب في جامعة لَيْدَن، اشتهر بدراسة تاريخ بلاد الأمازيغ والأندلس. ولد عام 1820 وتوفي عام 1883. له مؤلفات عدة، أشهرها تكملة المعاجم العربية أوالمستدرك.

ينظر عبد الرحمن بدوي : موسوعة المستشرقين ، المؤسسة العربية للدّراسات والنّشر ، بيروت : ص259 .

(5) مالك بن نبي : إنتاج المستشرقين وأثره في الفكر الإسلامي الحديث . ط1 . دار الإرشاد للطباعة النشر والتوزيع ، بيروت ، ص11.

مستقبل الثّقافة . ذكر مالك بن نبي أنّه انعقد مؤتمر للعمال الجزائريين بباريس ودعي للمشاركة فيه صديق له فأعدّ عرضا تناول فيه مشكلة من مشاكل اليوم خصوصا بالجزائر ، غير أنّ عرضه لم يؤت الثّمرة التي كان يرجوها ويعلّل ذلك بقوله : " ... لكنّ أصحاب الاختصاص في الصراع الفكري لم يهملوا هذه المناسبة من اهتمامهم ولم يفتهم ما تقرّر توزيعه بهذه المناسبة ، ولكن كيف يسدّون الذريعة أعني كيف يسدّون الطريق على الأفكار المعروضة في الكتيب الذي سيوزّع أثناء المؤتمر حتّى لا يصل مدّها إلى رؤوس المؤتمرين أو على الأقل حتّى يكون لها أقلّ مدّ ممكن ؟ وإذا بنا نرى الدعوة توجّه إلى تلك السّيدة الألمانية المقرّبة التي وضعت أو وضع اسمها على ذلك الكتاب ذي العنوان الجذّاب " شمس الله تشرق على الغرب " وفيه ما فيه من مدح وتمجيد الحضارة الإسلامية . وتقدّمت السّيدة وقدّمت كتابها إلى المؤتمر فانتقل على الفور بروحه من مجال المشكلات الحادّة القائمة اليوم إلى أبّهة وأمجاد الماضي الخلّاب .. وفي الأخير قامت القاعة كلّها لتحيّ السّيدة!" [1]

وآتى هذا السّعي أكله بنجاحهم في ترسيخ هذه النّظرة عند طائفة منّا ، فيسجّل تاريخ نهضتنا الحديثة ما وقع فيها من تقوقع على النّفس ورفض لكلّ ما هو جديد بحجّة أنّ ذلك يمحو التّراث الغني الزّاخر بكل الفنون . فكان العيش على أمجاد الماضي الذي صنعه الأجداد ، وكان الشّعار ليس في الإمكان أحسن ممّا كان ، وهي نظرة عدمية تقتل قوّة الإبداع في النّفس .

وقابل هذا التوجّه توجّه أخر أكثر منه خطورة وهو الدّاعي إلى الاجتثاث من الماضي واللّحاق بركب الغرب المتحضّر حتّى نستطيع الخروج من تخلّفنا ، يقول يوسف الخال :" ما الحداثة زيّا أو شكلا خارجيا مستوردا ، وإنّما هي نتاج عقلية حديثة تبدّلت نظرتها إلى الأشياء تبدّلا جذريا وحقيقيا انعكس في تعبير جديد". فالحداثة لم تكن في نظر أمثال هؤلاء بالمقياس الزّمني ومحاولة تحديث الأدب لإخراجه من مظاهر التّخلّف والضّعف ، وإنّما كانت بالمعنى النّوعي ، يقول د. محمد عادل : " الحداثة في مفاهيم عصرنا تشير إلى نمط من التّفكير أنتجته الثّقافة الغربية الحديثة ابتداء بعصر النّهضة والأنوار وهو يقوم على مجموعة من المبادئ المترابطة التي من أهمها العقلانية الحديثة والطبيعة والوضعية والتّقدّمية والمادية سواء الفلسفية منها أو العلمية التّطبيقية"[1]

فهي حركة أرادت خلع الأدب العربي بما يحمل من قيّم وتصوّرات للحياة وغير ذلك .. من بيئته التي عاش فيها قرونا طويلة تطوّر بتطوّر الحياة فيها . والمتأمّل في الأدب العربي قبل عصر الانحطاط يلاحظ ذلك. وقد ظهرت آثار هذه الحركة في جوانب الحياة العربية المختلفة . وربما بلغ

---

[1] المصدر السّابق : ص 16

[1] د. محمد عادل شريح : فكرة التّأصيل المنهج والفلسفة . ط1 . دار الفكر ، دمشق ، المقدمة .

ببعضهم حتّى التّشكيك في تراثنا متأثّرين في ذلك بالمستشرقين الذين زعم أحدهم وهو مرجليوث[2] بأنّ العرب في جاهليتهم لم يكن لهم أدب وما نسب إليهم إنّما هو من صنع الإسلاميين، ونحله بعد ذلك الوضّاعون للجاهليين ، ثمّ تلقّفها منه طه حسين ليبثّها بين أبناء جلدته من خلال كتابه في الشّعر الجاهلي .

وفي الحالتين نرى أثر الاستشراق في الحياة الأدبية والفكرية للعرب كما تقدّم من وصف لهم بالمادحين والذامّين . وصاحَب مفهوم الحداثة فكرة العالمية في الأدب . فكان استعمال المفهومين في كثير من الأحيان يشوبه الغموض لتداخل المفاهيم في الأذهان . وإذا كان مبتدعو الحداثة يدركون مغازيها فإنّ كثيرا منّا كان يروّج لها بحسن نيّة رغم أنّه يفترض في المرء العاقل الواعي تمحيص ما يعرض عليه والتّروي فيه . وها هي مرحلة الحداثة تمرّ بعد مضيّ عقود من الزّمن وتحلّ مرحلة ما بعد الحداثة والعولمة ، أفلا يحقّ لنا الآن أن نسأل أنفسنا ما الذي حقّقته لنا الحداثة وما المأمول تحقيقه مما بعدها ؟

لقد مرّت السّنون ولا نجد تشكّلا واضحا للأدب العربي مستقلا عن الحداثة الغربية . فمن التّشكيك في الموروث الشّعري والتّقليل من قيمته بقياسه بمقاييس حديثة . ولعلّ في هذا من الظّلم للقدامى ما فيه لأنّهم أبناء بيئتهم أعطوها كفاء ما تطلبه منهم . والنّظر إلى هذا الموروث على أنّه مجرد نظم ليس فيه من الجمالية شيء إلا إذا وافق أهواء الحداثيين . فكان انتقاء أنواع معيّنة ومجموعات محدّدة دون غيرها ، وإبرازها على أنّها أحسن ما يمثّل العصر وغضّ الطّرف عن أخرين رغم ما في نتاجهم من فنيّات جمالية عالية . وقد تعدّى هذا القدامى إلى المحدثين والمعاصرين ، فصار التّركيز الإعلامي على مجموعة من الأدباء والمفكّرين دون سواهم وكأنّه لا يوجد في السّاحة غيرهم ، بل أكثر من ذلك أحيطوا بهالة من التّعظيم والتّقديس فصارت آراؤهم كأنّها الحقّ الذي ليس وراءه إلا الباطل[1] . فكم من مفكّر أو أديب كانت له زلّات وطعن في موروثنا وقيّمنا ، ولم نناقش أقواله وما يكتب ، بل تلقيناها بقبول حسن ، ولم نجرؤ على ذلك بسبب هذه الهالّة التّقديسية أو خوفا

---

(2) هو دافيد صمويل مرجليوث ، إنجليزي يهودي ، من كبار المستشرقين ، متعصب ضد الإسلام ، عيّن أستاذ للعربية في جامعة أكسفورد له كتب عن الإسلام والمسلمين ، لم يكن مخلصاً فيها للعلم مات سنة 1940م من مؤلفاته : "التطورات المبكرة في الإسلام"، و"محمد ومطلع الإسلام"، و"الجامعة الإسلامية" وغير ذلك .
ينظر : عبد الرحمن بدوي : موسوعة المستشرقين : ص546 .

(1) لعلّ أقرب مثال إلينا هو د. عبد الوهاب المسيري الذي كان يروّج فكره في البدء على أنّه من التّنويريين لكن ما أن تراجع عن أفكاره حتّى عدّ من المرتدين والرجعيين لأنّه عاد إلى أصالته .

من أن نتّهم بالتّخلف والرّجوع إلى القرون الوسطى رغم أنّ هذه القرون لم تكن قرون ظلام عند العرب والمسلمين بل كانت كذلك في الغرب . فصارت الحداثة تقترب من مرادفة السّير في ركاب الفكر الغربي وآدابه وهو ما كان يسعى إليه الحداثيون منذ البدء كما تقدّم من بعض أفكارهم وأقوالهم .

وقد كان المنطلق والمأمول من الحداثة أن نصل إلى عالمية أدبنا بالرّغم ممّا في ذلك من مخاطر ، ورغم أنّه لم يترجم من الأعمال العربية إلى اللّغات الغربية إلا المتوافق وفكرهم وما يحقّق أهدافهم ، إلا أنّ منظري الحداثة لايزالون يصدموننا بآرائهم المصرّة على ركوب مراكب الغرب . وقد تطورت بعض هذه الآراء لتنزع عنّا كل خصوصية بل أكثر من ذلك حين يدعو الدّاعون إلى الأنسنة وما شابهها من مناهج ودراسات غربية لتطبق على كلّ شيء بما في ذلك القرآن الكريم حافظ لغتنا ومصدر قواعدها وملهم علماء البيان في وضع أسسه من خلاله بزعم . وهم بذلك يريدون إقناع النّاس . أنّ كل شيء قابل للنّقد ولا يوجد المقدّس مثلما كان في الغرب . ولعلّ مناهج النّقد الأدبي كانت أشدّ خطورة من غيرها كما يذهب إلى ذلك د. المسيري[2]

فالملاحظ أنّه لم نؤسس لمناهج خاصة بنا كما فعل أسلافنا . وإن كانت تلفيقية في بعض الأحيان . بل أخذنا القوالب جاهزة كما هي وحرصنا على تطبيقها . فإذ كان الغرب تبنى مناهج اخترعها وطبقّها على كلّ نصّ حتّى المقدّس منه ، فهم محقّون لما كانوا عليه من تخلّف قبل الحداثة ، ولما تراكم في تراثهم من أساطير وخرافات لم تسلم منها حتّى كتبهم المقدّسة ، فإنّ الأمر مختلف تماما عندنا . وصرنا نستهلك ثقافتهم كما نستهلك منتوجاتهم . وكأنّه محكوم على العرب أن يعيشوا بمنتوج الأخرين في كبير حياتهم ودقيقها .

واليوم بعد انقضاء عهد الحداثة وبداية عهد ما بعد الحداثة أو العولمة نجد من يسارع إليها ويدعو جهارا إلى تبنيها لأنّه لا مفر منها إن أردنا أن يكون لنا وجود . فهل فعلا سيبقى لنا وجود بعد الانخراط فيها ؟

لا ينكر إلا مكابر قفزة العلم الهائلة وما نتج عنها من تقدّم تكنولوجي وما تبعه من آثار في حياة النّاس على اختلاف أوطانهم وألسنهم كان من أهمها تقريب أطراف العالم حتّى صار . كما يقولون . قرية صغيرة مع ما في هذا التّعبير من الايحاء الكثير ؛ فهو إضافة إلى ما يوحي به من تقارب زماني ومكاني (افتراضي) يوحي أيضا بتوحّد النّظرة والتّقاليد في المجتمع لأنّ تصوّرات وعادات أهل القرية متقاربة كأنّها مستنسخ بعضها من بعض . وهذا هو هدف العولمة الرّامي إلى إذابة العالم كلّه وإعادة صياغته وتشكيله في قالب واحد كما أراده مبدعوها .

---

[2] ينظر : عبد الوهاب المسيري ، العلمانية والحداثة والعولمة ، ط3 ، دار الفكر ، دمشق 2009 : ص251 .

وإذا كان المستشرقون قد بحثوا في موروثنا وأفادوا منهم وأفادونا أيضا ، فإنّ العولمة التي هي في ظاهرها تعنى بالجانب الاقتصادي للبلدان من خلال فتح الحدود أمام التّجارة العالمية ، وسياسية من خلال بسط نظام عالمي واحد شعاره الحرية والدّيموقراطية ويحمل لواءه العالم الحرّ كما يسمّون أنفسهم ، فهي أيضا محو ومسخ لما هو محليّ واستبداله بالمنتوج الغربي ماديا كان أو معنويا بوسائل متطوّرة . ولعلّ ما يحدث في البلاد العربية خصوصا وفي العالم الإسلامي عموما بعد سقوط المعسكر الشّرقي وأحداث 11 سبتمبر 2001م من تحويل هذه المجتمعات الشّرقية من مجتمعات تحمل ثروة قيمية على ما فيها ممّا يتحفّظ عليه أو يرفض إلى مجتمعات لا هويّة لها من خلال التكنولوجيا الحديثة (الشّبكة العنكبوتية . مواقع التّواصل الاجتماعي . القنوات التّلفزية المتخصّصة ..) فهي تحقّق الجانب الاقتصادي بما تدرّه من أرباح على الشّركات المنتجة (شركات عابرة للقارات) ، وتهيمن على الدول سياسيا ، وتنشر فيها ثقافة غربية ليس للعربي والشّرقي عموما فيها إلا الاستهلاك والتّمثّل . وإذا فقد الإنسان مرجعيته لا يمكن أن يكون إلا تابعا لغيره متماهيا فيه يستحسن ما يستحسن ويستهجن ما يستهجن ولا يملك مقاييس خاصة به ، بل حتّى لا يستطيع أن يتميّز بهويته ليلقى أدبه قبولا في الغرب . يذكر أحمد الشّيخ نقلا عن مالك شبل[1] في حواره معه قوله :" في فرنسا يرفضون للعرب ، أقصد الذين يعلنون عن أنفسهم ، الحقّ في أن يكونوا باحثين ويفضلون الفرنسي أو الأوروبي للقيام بأبحاث عن العالم العربي . أمّا إذا قام باحث عربي بذلك فيشكّكون في قيمة أبحاثه ، والغريب أنّ أحدا لا يتشكّك في كبار الباحثين الفرنسيين والأوروبيين عندما يدرسون ثقافتهم ولا يطرح عليهم أبدا إذا كانوا باحثين أم لا .."[2] فهذه شهادة المعاين . وليس الخبر كالمعاينة . بأنّ الغرب لا يرضى إلا بما يصبّ في مصبّه .

أمّا الزعم بفكرة التّأثير والتّأثّر ، فنحن أبعد ما نكون عنها ، ويشبه هذا فكرة التّعاون الثّقافي الذي يوحي بالتّشارك في الفعل إلا أنّ الواقع غير ذلك إذ غالبا ما يكون الفعل من جانب واحد وإن نسب إلى طرفين ، لأنّ الطّرف الشّرقي في أغلب الأحيان صار يقدّم ما قلّد فيه الغرب فيبدو ما يقدّمونه كأنّه نسخة عربية للنّسخة الغربية .

لا شكّ في أنّ لنا من المفكّرين والأدباء من يحمل هموم هذه الأمّة ، ومن يدافع عن أصالتها ويدفع عنها هجمات التّغريب والعولمة لكنّهم لا يجرؤون على فعل ذلك لعلّة فيهم ، أو بسبب ظهور خصومهم بمظهر القويّ الذي لا يقهر ، ولهذا وجب أن تتظافر جهودهم . ومثلما كان الهدم عبر

---

(1) أنثربولوجي جزائري يعيش بفرنسا ويكتب بلغتها .

(2) من نقد الاستشراق إلى نقد الاستغراب (حوار الاستشراق) لأحمد الشّيخ، ط1، المركز العربي للدّراسات الغربية ، 1999 : ص224 .

مراحل وبأشخاص كثر ، ينبغي أن يكون البناء بالطّريقة نفسها لأنّ العولمة ليست شرّا لابدّ منه، بل هي مخالفة لفطرة النّاس الذين خلقهم الله مختلفين بعضهم عن بعض ولا يمكن أن يكونوا صورة مستنسخة عن بعضهم ولذلك قال: چٱ ٻ ٻ ٻپ پ ٻ ٻپ پ چ[1]

فنحن أمام تحد كبير فإمّا أن نكون أو لا نكون . ولا أعني بالكينونة مجرد الوجود ، بل الوجود المؤثّر ، الوجود الفاعل ، الوجود المعبّر عن الهويّة لا الوجود الممسوخ . الذي هو عاكس لحياة تصنعها ثقافة العولمة . فإن كان لابدّ من التطوّر (وهذه سنة الحياة التي تشعر بحياة الأقوام). ونستفيد من التكنولوجيا ، فإنّه لابدّ من المحافظة على آصالتنا التي تميّزنا عن غيرنا سواء على مستوى الفكر أو الفنون على تنوعّها . ولنا الأمثلة في أمم بلغت من التّقدم التكنولوجي مبلغا لازلنا بعيدين عنه ، فإنّهم لم يفرّطوا في عاداتهم ومعتقداتهم رغم بطلانها . وليكون أدبنا مرآة عاكسة لهذه الحياة التي نصنعها لأنفسنا لا الحياة التي يراد صنعها لنا .

[1] هود : 118 .